الفصل الثاني :

التربية البيئية .. ترف أم ضرورة إنسانية ؟

مقدمة:

يبدو التربويون وكأنهم مسؤولين إلى حد كبير عما يعتري الأرض من تلف بيئي وخلل في التوازن الطبيعي، وتراجع في مستوى نوعية الحياة .

فإبداع البدائل الصناعية، والمخططات التنموية، والأنشطة الاقتصادية الموالية للبيئة يظل قاصرا دون تحقيق مصالحة بين الإنسان و بيئته، ما لم تصحبه ضرورة تشكيل وعي بيئي يسهم في تعديل السلوك البشري ويضع الذات الإنسانية مجددا في خانة الاندماج الكلي مع الطبيعة .

إن قضية البيئة قضية تربوية وسلوكية ومجتمعية، وهو ما يفسر الحضور المبكر للبعد التربوي في سلسلة اللقاءات الدولية حول البيئة . فإذا كان مؤتمر استوكهولم 1972 علامة فارقة في الفكر البيئي ، فقد شكل تقرير المؤتمر الدولي للبيئة في تبيليسي 1977 منطلقا للبحث عن الصيغ الكفيلة بالادماج الفاعل للتربية البيئية في المنظومة التربوية الدولية .

تعريف التربية البيئية:

وبما أن تحديد مدلول التربية البيئية شرط ضروري لوضع تصور استراتيجي متكامل لإدماجها في المسار التعليمي، فقد تعددت مدلولاتها تبعا لتباين الرؤى

والتصورات حول مدلول البيئة نفسها، وللمستجدات المطروحة على مستوى الندوات ـ العلمية و الحلقات الدراسية . فبينما يحصرها بعض الباحثين في دراسة العناصر المؤلفة للمنظومة الطبيعية " ماء، هواء، كائنات حية" يؤكد البعض الآخر أن البعد الحضاري لهذه التربية يستلزم رؤية أعمق ، تستحضر التأثير المتبادل بين المحيط البيئي و إفرازات النشاط الإنساني، وتحيل بالضرورة على الجانب الأخلاقي والسلوكي.

(1) تعريف الدكتور غازي أبو شقرا :

"التربية البيئية هي عملية تكوين القيم و الاتجاهات و المهارات و المدركات اللازمة لفهم وتقدير العلاقات المعقدة التي تربط الإنسان و حضارته بمحيطه الحيوي ، والتدليل على حتمية المحافظة على المصادر البيئية الطبيعية ، وضرورة استغلالها الشريد لصالح الإنسان و حفاظا على حياته الكريمة و رفع مستوى معيشته ".

(2) تعريف الدكتور إبراهيم مطاوع :

"التربية البيئية نمط من التعليم ينظم علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية والاجتماعية والنفسية، مستهدفا إكساب الأطفال والشباب خبرة تعليمية، و اتجاهات وقيم خاصة لمشكلات بيئية تضبط سلوك الفرد إزاء الموارد البيئية ،بحيث تصبح الفعالية والايجابية سمة بارزة في سلوك الفرد".

(3) تعريف المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة 1987م :

"التربية البيئية منهاج لإكساب القيم وتوضيح المفاهيم التي تهدف إلى تنمية المهارات اللازمة لفهم وتقدير العلاقات التي تربط بين الإنسان وثقافته وبيئته الطبيعية والحيوية وتعنى بالتمرس في عملية اتخاذ القرارات ووضع قانون للسلوك بشأن المسائل المتعلقة بنوعية البيئة ".

يتضح من خلال التعريفات الثلاث أن التربية البيئية ليست مدخلا علميا مستقلا عن السياق التعليمي، بل رؤية متكاملة مع باقي مكونات المعرفة المكتسبة . فسعيها نحو إكساب قيم واتجاهات وخبرات تعليمية موالية للبيئة ، وتعويد الناشئة على بدائل

سلوكية تخفف من وطأة التدهور البيئي متسق إلى حد كبير مع غايات ومرامي أي نظام تربوي من منطلق أن التربية - أي تربية- تروم في النهاية تعديل السلوك الإنساني. وهو ما يدفعنا إلى الجزم بأن فشل بعض برامج التربية البيئية وثيق الصلة بتخلف وتردي الأنظمة التربوية القائمة، وعجزها عن خلق التفاعل المطلوب بين اتجاه الفرد وسلوكه، وتمكينه من المعينات البيداغوجية والمعرفية التي تؤهله للانخراط الايجابي في حل معضلات مجتمعه.

- **نحو تصور متكامل:**

لا يمكن إرساء وعي بيئي لدى الناشئة دون استحضار - مضمر أو صريح - للخلفية الثقافية التي توجه سلوك الإنسان حيال الطبيعة وتتحمل مسؤولية الأزمة البيئية المعاصرة. فالعقل الغربي يستمد موقفه تجاه الطبيعة من الموروث الفكري اليوناني الذي ينبني على تصور عدائي قوامه تدجين الطبيعة وقهرها للانتفاع بخيراتها، دون الالتفات لما يترتب عن ذلك من آثار سلبية. وساهمت التيارات الفكرية الحديثة من اشتراكية وليبرالية وغيرها في تغذية هذا التصور، بتأكيدها على مركزية الوجود البشري، والحق الإنساني المطلق واللامحدود في استغلال الموارد الطبيعية، والسيطرة على المحيط البيئي .

أما العقل الإسلامي فيستمد موقفه من نصوص ربانية، وإشارات نبوية هادية تلزمه بالقصد والاعتدال، وتحثه على النهوض الأمثل بواجب الاستخلاف . فمبدأ التسخير الذي يتكرر في آيات قرآنية عديدة يشير إلى أن كل المخلوقات خادمة للوجود الإنساني و موجهة لتحقيق حاجياته .

أما مبدأ الاستخلاف فيتضمن مسؤولية الفرد تجاه محيطه، وأن له حرية التصرف في أمر الأرض دون مجاوزة حد الاعتدال و التوسط.

بينما تتسع دائرة "الإفساد في الأرض" لتشمل كل ضرر أو عبث يطال مكونات الوجود، ويصبح الزجر "الشرعي" حائلا دون هدر "الرأسمال البيئي".

بل يذهب النص الديني إلى أبعد من ذلك حين يُلفت الانتباه إلى المظهر الجمالي في المخلوقات، ويحث الإنسان على تذوق الجمال وممارسته في الحياة اليومية "قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال"، وهو ما يدفعنا إلى الجزم بأن الأزمة البيئية المعاصرة في دول العالم النامي أزمة "مستوردة"، ومثال صارخ على السعي الحثيث لدى العالم المتقدم إلى تصريف عاهاته و خيباته وأوبئته خارج حدوده !

فبعد المؤتمر العالمي للتنمية الصناعية الذي عقد في البيرو عام 1975م، والذي نص على تحديد حصة العالم النامي من إجمالي الإنتاج الصناعي "حوالي 25٪" بدأت آثار التلف البيئي الناتج عن التصنيع تظهر في أكثر من دولة نامية، ليتبين فيما بعد أن الأمر يتعلق بمخطط لتوطين الصناعات الملوثة في هذه البلدان !

- **نحو تربية بيئية .. فاعلة:**

إن الغاية المثلى من إدماج التربية البيئية في المسار التعليمي هي تعديل السلوك الإنساني إزاء البيئة، والتحسيس بمخاطر التمادي في استنزاف خيرات الطبيعة. وهي غاية لا يمكن للبديل الصناعي أن يحققها، يقول الدكتور" أنطونيو مورينو" مدير معهد البيئة في جامعة بارما الإيطالية (إن البحث عن الوسائل التقنية الملائمة التي من شأنها تحسين الأوضاع البيئية يخنق الإدراك الواعي بضرورة مراجعة جذرية للسلوك الإنساني على الصعيد التصوري أو المفاهيمي والأخلاقي/ السلوكي. هذا السلوك الذي يعكس مذهب سيطرة الإنسان المطلقة على الطبيعة).

فالتشجيع على استخدام التقنيات البديلة في النشاط الاقتصادي، والاستثمار في معدات درء الأخطار البيئية، و مراعاة السلامة البيئية عند تشييد وتشغيل المنشآت الصناعية لا يمكنه أن يحد من التدخل غير العقلاني وغير المنضبط للإنسان في إفناء عناصر الحياة، إن لم يصاحبه مجهود تربوي يتيح التطوير المتوازن لشخصية الطفل، ويهيئ له إقامة علاقة منسجمة مع الوسط الطبيعي.

ومن خلال استقراء واقع الحضور البيئي في الممارسة التربوية بالوطن العربي يتبين

غلبة الطابع الاحتفالي/ الرمزي على الأنشطة البيئية، وارتباطها زمنيا بمناسبات بيئية محدودة "يوم الأرض مثلا". فحملات التشجير الموسمية، ومعارض رسوم الأطفال قاصرة عن إرساء الوعي البيئي اللازم لمواجهة التحديات و الأخطار المقبلة. أما بعض التجارب الرائدة في مجال ترسيخ الثقافة البيئية كتجربة " المدرسة الايكولوجية" بالمغرب، والمدعمة من طرف مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة، فهي بحاجة إلى عدة تربوية متكاملة لجعل المدرسة فضاء نموذجيا لإشاعة السلوك الموالي للبيئة .

التدابير المقترحة في هذا الصدد لإحداث النقلة النوعية المطلوبة:

وتشمل التدابير المقترحة:

- التركيز في البرامج الدراسية على اقتراح الحلول والبدائل الممكنة للمشاكل البيئية بدل الاكتفاء بتنمية الوعي.
- التدرج في إدخال المعطيات العلمية وإدماج المستجدات بشكل دقيق يراعي النمو المعرفي للطفل، ويعزز مواقفه تجاه محيطه البيئي.
- اعتماد أسلوب الملاحظة المباشرة في دراسة المعطى البيئي، وهو ما يتطلب تكثيف الزيارات الميدانية للمرافق البيئية، وإجراء حصص تعليمية في الهواء الطلق، وربط المعارف المقدمة بإشكالية بيئية ذات صلة بمحيط المؤسسة "اجتثات الغابة ، تصحر، نضوب الموارد المائية...".
- استعراض التجارب الناجحة في مجال تحقيق التوازن بين طرفي المعادلة الصعبة: مواصلة استغلال الموارد الطبيعية دون الإخلال بتوازن المنظومة البيئية.
- دعم التربية الأخلاقية بالنظر إلى الصلة الوطيدة بين الحفاظ على البيئة وبعض المشاعر الإيجابية كالأمانة والصدق والولاء والمواطنة، والتربية على المسؤولية.

إن عالمية الخطر البيئي تلقي على كاهل التربويين مسؤولية جسيمة تتجلى في تنشئة وإعداد جيل "أخضر" يسعى إلى تحقيق "حضارة بدوية" تضمن تعلقه المستمر بالبيئة وتفاعله الإيجابي معها أخذا وعطاء، وتجنبه الاختناق بإفرازات الثورة التكنولوجية.

ويقول الدكتور أسامة الخولي: "ما يفعله الفرد أو يمتنع عن الإتيان به هو بدوره حصاد فكره أي تعليمه و ثقافته وقيمه المكتسبة، والتربويون هم صانعوا هذا الفكر وهذه القيم".

البيئة والإنسان .. وأثر كل منهما على الأخر:

منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض وهو يعتمد في حياته على البيئة المحيطة به، وما فيها من موارد طبيعية، وتدرجت مراحل التسلسل التاريخي لعلاقة الإنسان ببيئته في خطوات متتالية لكل منها تفاعل مستمر بين عناصر ثلاثة هي: الإنسان والتقدُّم العلمي والبيئة. ويصنف المختصون في علم البيئة هذه المراحل إلى خمس هي: مرحلة الجمع، ومرحلة الصيد القنص، ومرحلة استئناس الحيوان والرعي، ومرحلة الزراعة والاستقرار، ومرحلة التقدم التقني.

ولم يكن تأثير الإنسان في بيئته في المراحل الأربع الأولى كبيرًا، أما في المرحلة الأخيرة التي تعيشها البشرية اليوم، فقد تعاظم تأثير الإنسان في بيئته عمَّا كان عليه في المراحل السابقة؛ نتيجة للتقدُّم التقني وما صاحبه من تقدم صناعي، وما أحدثه من تغييرات في البيئة الطبيعية والاجتماعية المعاصرة.

وترتب على ذلك اتخاذ الإنسان أنماطًا سلوكية تمثلت كما يرى بعض الباحثين في زيادة إنتاج الآلات والسلع، وإسراف بالغ في استخراج المواد الأولية، واستغلال الموارد الطبيعية، واستهلاك موارد الطاقة؛ نتيجة للزيادة المطردة في عدد السكان يضاف إلى ذلك التوسع في استخدام المبيدات الحشرية، والمواد الكيماوية؛ مما يؤدي إلى فساد البيئة واستنفاد مواردها. وقد لا يكون الإنسان هو المسئول الوحيد عن هذه المشكلات، فهناك عوامل أخرى تسهم في حدوثها، مثل: الانفجار السكاني، وقد تتسبب العوامل البيئية الطبيعية في حدوث بعض هذه المشكلات أيضًا.

يقول د. صالح ذياب هندي في بحثه المتميز «المفاهيم البيئية في كتب التربية الإسلامية» المنشور بمجلة «رسالة الخليج العربي»، والذي اعتمد عليه الكاتب بصفه

أساسية يقول: ومع ذلك يظل الإنسان وسط هذه الأنظمة الثلاثة الفاعل الرئيس، وعلى نشاطاته تتوقف درجة التفاعل بين عناصرها سلبًا أو إيجابًا.

ومع أن الإنسان أهم مكونات البيئة، بيد أنه الأكثر تأثيرًا فيها، فبحكم قدراته ومكانته المتميزة وحاجاته العديدة أصبح يعيش في كثير من الحالات فوق طاقة احتمال مكونات البيئة الطبيعية، وظهرت من جرَّاء ذلك مشكلات بيئية انعكست آثارها السلبية على نوعية حياته في حاضره ومستقبله.

كما أن الرغبة الشديدة من الإنسان في فرض سيطرته الجائرة على البيئة الطبيعية دون مراعاة لاحتياجات الأرض تسببت في وهنها وعجزها عن الوفاء بمتطلبات المدينة الحديثة، وأصبح الإنسان مهددًا بمواجهة أزمات صحية وبيئية لم يسبق لها مثيل، مثل: شح مصادر المياه، وأزمة نقص الغذاء، والتلوث بالأسمدة الكيماوية، والمبيدات الحشرية، والغبار النووي، ومشكلة التصحر، وجرف التربة، وانحسار الغابات، وظاهرة ثقب الأوزون، وشكلت مجموعة هذه المشكلات بآثارها المدمرة قضية خطيرة تسمَّى القضية البيئية، تحمل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمشاهدة في طياتها بين حين وآخر معالم هذه القضية مشفوعة باستغاثة الأرض؛ لرفع الجور الواقع عليها، فكانت بداية الاهتمام بمشكلات البيئة منذ مطلع السبعينيات حينما وجه 2200 عالم من علماء البيئة سنة 1971م رسالة إلى سكان الأرض نبهوا فيها على خطورة التعامل غير الواعي مع البيئة. وإزاء هذه الحالة من الخطورة، حدث اهتمام كبير بمشكلات البيئة وقضاياها، وكان من بين هذه الاهتمامات سن القوانين والتشريعات، وتقديم الحلول العلمية والتقنية.

ويمكن القول أن القوانين وحدها لا تستطيع أن تحقق الغرض المرجو منها في هذا المجال، ناهيك عن أن القوانين التي تستهدف المحافظة على البيئة؛ كي تحقق الغرض الذي صدرت من أجله ينبغي أن تستند إلى مناخ قوي من الرأي العام، ولا يتم ذلك إلا بتوعية الأفراد داخل المدرسة وخارجها، من هنا برز دور التربية نحو البيئة.

إن العلاقة بين التربية والبيئة علاقة وثيقة ليست جديدة، فالتربية تقدم في المضمون التعليمي معلومات بيئية متعددة ذات ارتباط بالمجتمع، وهي لم تقم أصلًا إلا لتعليم ما هو موجود في البيئة وطرق الإفادة منها، ولهذا ظهرت الدعوة إلى الأخذ بالمدخل البيئي أو التربية البيئية التي تأخذ فيها البيئة وضعًا جديدًا باعتبارها وسيلة وغاية، فالبيئة مصدر إثراء للعملية التربوية، وفي الوقت ذاته، فإن التربية تهدف إلى المحافظة على البيئة ورفع مستواها وتطويرها.

واستجابة لهذه الدعوة عقدت المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية، وصدرت الكثير من التوصيات والتقارير والبرامج؛ الدولية، والإقليمية، والوطنية التي تركز على التربية البيئية، والبُعد البيئي في الدراسات المعاصرة.

واستجابة لتوصيات المؤتمرات الدولية واهتمامها بالتربية البيئية، فقد توجهت الجهود إلى ضرورة تضمين المفاهيم البيئية في محتويات المنهج والكتب المدرسية. ومن مداخل تضمين المفاهيم والموضوعات البيئية في المناهج والكتب المدرسية المدخل الاندماجي، ويتم بإدخال معلومات بيئية، أو من خلال ربط المحتوى بقضايا بيئية مناسبة، أو توجيه منهاج مادة دراسية بأكمله توجهًا بيئيًّا، وهناك المدخل المستقل؛ حيث يتناول برامج دراسية متكاملة للتربية البيئية، بحيث تدرس كمنهج دراسي مستقل.

وقد تجسد الاهتمام بإدخال البعد البيئي في المناهج الدراسية بما قامت به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو)، وكذا مكتب التربية العربي لدول الخليج من إعداد وحدات مرجعية على مستوى التعليم العام بنيت على أساس التكامل، وتضمَّنت نماذج مختلفة من المواد الدراسية ومن بينها مادة التربية الإسلامية، وكيفية إسهامها في تحقيق أهداف التربية البيئية لدى الطلاب، ووجهت إلى مخططي المناهج ومؤلفي الكتب، ومصممي الوسائل التعليمية، وواضعي برامج التدريب للإفادة منها، إضافة إلى إصدار مجموعة من الكتب البيئية الهادفة، وكذا نشر مجموعة من البحوث

البيئية الموجهة، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج وغيرهما في إدخال المفاهيم البيئية في مناهج التعليم في الوطن العربي، بيد أن الدراسات المسحية للمناهج في الوطن العربي أشارت إلى أن المناهج التعليمية في وضعها الراهن تفتقر إلى المضامين البيئية.